مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10/ العدد: 3 (2022)، ص: 99-113

إشكاليّة الأنا والآخر اليهودي في الرّواية المغاربيّة من خلال روايتيّ "أنا وحاييم" للحبيب السايح و"حمام الذّهب" لمحمد عيسى المؤدب

The Self and the Other-Jews in the Maghrebian novel through the two novels me and haim by habib al-Sayeh and the Gold's bath by Muhammad Issa al-maddeb

ط.د أم الخير حسيني[1]، أ.دعلي محدادي[2]

[1] مخبر النقد ومصطلحاته، جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، hacinioma@gmail.com

[2] جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، amahdadi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/07/14 تاريخ القبول: 2022/09/10 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص: لاينكر المتتبع لمدوّنة السّرد العربي أنّ الرّواية العربية قد قطعت شوطا كبيرا في تناولها إشكالية الأنا والآخر وخاصة الآخر اليهودي. وسلطت الضّوء على التأثير الكبير والخطير في العلاقة القائمة بين الذّات العربية والآخر اليهودي بفعل الأحداث السّياسية وعلو النبرة القوميّة وخاصة ما كان متصلا منها بقضية الهُويّة والمواطنة.

ومن خلال روايتي: (أنا وحاييم) للحبيب السائح، و(حمام الذّهب) لمحمد عيسى المؤدب حاولنا التّركيز على هذه الإشكالية التي راوحت بين التّعاطف مع اليهود باعتبارهم أناسا يتواجدون في المكان نفسه دون اعتبار للدّيانة، وبين تحفّظ مبعثه ذلك الآخر العدو أو الوصم باليهودية المعادية (خاصة المقترن بالصّهيونيّة) وخطرها على القومية العربية.

كلمات مفتاحية: الأنا، الآخر، اليّهودي، الرّواية، المغاربيّة.

Abstract: Whoever pursues the Arabic Narratives cannot deny that the Arabic novel has gone a long way in dealing with the issues of the Self and the Other, primarily the Jewish Other. It

enlightened the great and the critical impact of the relationship between the Arabic 'Self' and the Jewish 'Other', as a result of the political events and the rise of the national tone concerning the issues of identity and citizenship. Through the two novels: (Me and Haim) by Habib Al-Sayeh and (The Gold's Bath) by Muhammad Issa al-Maddeb, we have tried to explore this problematic, which balanced between the sympathy with Jews as people living in the same place, regardless of religion from one hand, and the reservation granted from the 'Other' as an enemy or the labeling of the Jewish Enemy (mainly associated with Zionism) and its threat to Arab nationalism from the other hand
Keywords: the self, the other, Jewish, the novel, maghrebian.

***المؤلف المرسل:** أم الخير حسيني

1. مقدمة

تعتبر الرّواية العربية منظومة إبداعية وفكرية لما تطرحه من قضايا وتثيره من تساؤلات تواجه الإنسان في معترك الحياة، وتعتبر العلاقة بين العرب واليهود من أبرز حلقات الصّراع المعاصر، فلا عجب أن ترصد الرواية المعاصرة طبيعة هذه العلاقة بكلّ أنماطها وتحولاتها، ومن بينها إشكالية الأنا والآخر، وما يعترضهما من أزمات في تشكيل هويتهما، خصوصا حين تصطدم الأنا بالآخر -وخاصة الآخر اليهودي-، فلقد تأثرت العلاقة القائمة بين الأنا العربية والآخر اليهودي بعدّة أحداث انطلاقا من نكبة 1948م وصولا إلى أحداث سبتمبر 2001م.

وموضوع الآخرية والهوية العربية من الموضوعات الحساسة التي وقف عندها الكثير من الباحثين لعلاقتها بالحياة التي نعيشها، والرّواية المغاربية بطبيعة الحال هي أنموذج دال على الرواية العربية لما تحمله من خصائص مسيرة المشهد العربي، من خلال النشأة والتّطور والجماليات، فحاولت الأنا المغاربية مواجهة

هذه التّحديات للحفاظ على هويتها من خلال احتكاكها بالآخر اليهودي، وفي الوقت نفسه النهوض بذاتها والحفاظ عليها بالتصدي لمن يريد مسخها.

وتأتي هذه الدّراسة بعنوان "إشكالية الأنا والآخر اليهودي في الرّواية المغاربية" لتغرف من الدّراسات السّابقة وتبرز هذه الاشكالية من خلال روايتيّ: (أنا وحاييم) للحبيب السائح من الجزائر، و(حمام الذّهب) لمحمد عيسى المؤدب من تونس، اللتين راوحتا بين التّعاطف مع اليهود باعتبارهم أناسا يتواجدون معنا في المكان نفسه دون اعتبار للدّيانة في إطار التّعايش الحضاري الذي تنادي به العولمة الثّقافية، وبين تحفظ مبعثه ذلك الآخر العدو أو الوصم باليهودية المعادية(الصهيونية) وخطرها على القوميّة العربية. وإنّ اقتصار هذه الدّراسة على هذه الدّول وهذه النماذج، لا يعني الاستهانة بأهمية إبداع الدول المغاربية الأخرى، بل يعني رغبة في دراسة نموذجين متقاربين في رؤية الآخر اليهودي، ولإبراز جهد الرّوائيين في تقديم هذه الإشكالية.

من خلال طرح الإشكال التّالي: كيف تجلى الآخر اليهودي في المدونة الرّوائية المغاربية؟ حاولنا تبيين هذه الصورة كما رسمتها الرّواية المغاربية، وذلك من خلال استنطاق الأنا العربية، وهل الآخر ضروري لتأكيد هويتها؟

2. صورة الآخر اليهودي في الرّواية المغاربية: تناول البحث الرؤى الفنيّة والفكرية لإشكالية الأنا والآخر في الرواية المغاربية، من خلال نماذج حديثة – الجزائر وتونس- حاولتْ طرح سبل الحوار الحضاري التي لا تزال معوقة إلى حدّ كبير وشديدة التأثير السلبي بأوجاع التّاريخ الممتدة في الذاكرة العربية، وموغلة في التّغطية الجائرة على طبيعة الإسلام كالاتهام بالتّطرف والإرهاب والعنف، فيرى الأنا أنّ لا سبيل لمواجهة هذا الخطر الدّاهم على وجودها إلا بالحوار الحضاري مع الآخر، وذلك ما أكده الدكتور عبد الله أبو هيف: "أنّ هناك رؤى متكاملة في

عدد من الرّوايات لضرورة الانتقال من عُسر الحوار الحضاري وأزماته وتأزماته الذّاتية إلى تعزيز هذا الحوار" (بلعلى، 2019، صفحة 114).

وربما ثمة تطورات في استدعاء صورة الآخر اليهودي في الرّواية العربية بصفة عامة، تشي بالكتابة عن طرح رؤية مغايرة نحوهم، حيث شهدت الفترة الاخيرة نقلة مهمة على مستوى نمط حضور هذه الشّخصية، بعد أن تغلبت تلك الصورة النمطية لليهودي الظالم والمُرابي والمغتصب والذي كان يتقمص دور الجلاد ردحا من الزمن، وتكوّنت عنه صورة إيجابية في الصّفات الشّخصية والإنسانيّة.

1.2 صورة اليهودي في رواية " أنا وحاييم" للحبيب السائح: صدرت رواية "أنا وحاييم" للكاتب الجزائري الحبيب السائح لأول مرة في سنة 2018 عن دار ميم للنشر في الجزائر، وحازت جائزة كتارا للرواية العربية، حيث ينسج الحبيب السائح قصته على لسان الأنا الساردة أرسلان ابن القايد الإقطاعي حنيفي الجزائري، واختار بدقة هذه الشّخصية من الطبقة المثقفة بتخصصه في الفلسفة وانحيازه للفكر اليساري، أما الآخر اليهودي الصديق والمقرب حاييم بنميمون الذي يعتبر نموذجا مثاليا لليهود الذين رفضوا المشروع الصهيوني والانخراط فيه، وفهم معنى المواطنة والانتماء للبلد العربي بعيدا عن أي تشنج ديني أو طائفي. وهذا ما أكّده حاييم في حواره مع أرسلان حين يقول: "إلى أين تريدني أن أغادر؟ هذا وطني، هنا ولدت وولد آبائي، أخلاط جسدي من تربة هذه الأرض، وفيها أدفن مثل آبائي. فلسطين ليست أرضي ولا وطني" (السايح، 2018، صفحة 162). فبدت العلاقة مع الآخر اليهودي علاقة مجردة من كل ما يوحي بالاختلاف والصدام، بل جعله صورة مثالية وهو يواجه أحلك الظروف كمحاولة قتله من طرف الجزائريين إثر موجة غضب اعترت الشارع الجزائري إبان الاستعمار وحرق صيدليته. في حين كانت ردة فعله وتصرفاته توحي بالحكمة وتمسكه بهذه الصداقة وهذه الأرض،

وحرصه على توثيقها وتمتينها بالمساهمة في الثورة الجزائرية وإرسالِ الأدوية للمجاهدين بصفته صيدليّا وإيوائه لزليخة الشّابة الجزائرية المنخرطة في صفوف الثورة، وهذا ما أكّده أرسلان للأهالي الجزائريين: "هل فيكم واحد مثل السيد حاييم خاطر بحياته ورزقِه من أجل أن يصبح الحلم بالحريّة حقيقة كما ترونها اليوم؟" (السايح، 2018، صفحة 226) وقال أيضا: "من يقول إنّ هذه الصيدلية آوت زليخة! ومنها أيضا خرجت تلك الكميات من الأدوية نحو الجبل" (السايح، 2018، صفحة 273).

نحن نعيش تحولا في علاقة العرب مع اليهود، وفي علاقاتهم بعضهم ببعض، إذ تنخرط هذه الرّواية في خطاب الدّعوة للتّعايش الإنساني، وهي من القيّم الجديدة التي تقضي ظاهريا بضرورة تجاوز التّمثُلات العنصرية التي تعرّض لها اليهود في العالم، وهذا ما أكّده الروائي نفسه بأنّ الرواية تشتغل على إعادة الاعتبار لصورة اليهود الجزائريين الذّين شكّلوا جزءا لا يتجزأ من مكونات البلد البشريّة والتّاريخية والثّقافية (بلعلى، 2019، صفحة 116). وهو ما اتسمت به الرواية العربية السّاعية لتحسين صورة الأنا العربية التي اتهمت بالعنف والظلم والإرهاب في الفترة الراهنة، وليحقق فكرة التعايش جرد الأنا والآخر من كلّ السّمات الدّالة على البعد الدّيني، ورسم شخصيتين هما أقرب للبراءة والطفولة التي لم تشوهها العداوة والحروب وذاكرة التّاريخ، بل صبغهما بصبغة إنسانية خالصة، فالحبيب السائح يقدّم شخصية حاييم اليهودي الإنسان ولا يضعه في القالب النمطي المألوف الذي يبرزه في صورته الكريهة الجامدة. ومردّ هذه الصورة الجديدة المغايرة للمألوف أن العربي تراجع للخلف ليعيد حساباته ويتدبّر أمر مواجهة الآخر بإذابة الفروق بين الأديان رغبة في التعايش السّلمي ودرء الفتن خاصة وأنّ بعض القوى الثّقافية رأت بأنه الحلّ الأمثل للحدّ من تصاعد موجات

العنف والإرهاب القائمة على التّعصب والعنصرية الدّينية، فيبدو وكأنّه تراجع تكتيكي باللغة الحربيّة لامتصاص هجوم الآخر أو التّخفيف من حدّته (سيد أحمد متولي، 2019، صفحة 73).

2.2 صورة اليهوديّ في رواية "حمام الذهب" لمحمد عيسى المؤدب: محمد عيسى المؤدب كاتب وروائي وناقد تونسي ولد في العام 1966م، صدرت له عدّة أعمال قصصية من بينها "قصة النار" التي فازت بالجائزة الوطنية لأدب الشباب للقصة القصيرة سنة 1995م، وله أعمال روائية نذكر منها: في المعتقل" (2013)، و"جهاد ناعم" (2017م) والتي كانت في محور الأديان والمكان، وتناولت معضلة تهريب الآثار والإرهاب والعنف، و"حمام الذّهب" (2019م)، التي تناولت الأقلية اليهودية في تونس.

حمام الذهب أو حمام الرميمي أو بلاع الصبايا يحكي قصة الأقلية اليهودية التي سكنت تونس، والذي تدور أحداثه ما بين تسعينات القرن الماضي إلى ديسمبر 2010م دون أن يغفل عن ذكر ما لاقاه اليهود على يد النازيين في تونس ما بعد 1948م، و1967م، استنادا إلى أقوال السيّدة مونيك حيّون التي أطلعت الكاتب على أجواء الحياة اليوميّة عند الأقلية اليهودية في تونس –ذكره في بداية الرواية- فيقول على لسان إحدى الشخصيات (أم هيلين): " تعرّض حيّنا إلى شتى أشكال الاحتقار والكراهية، لم تكن لنا عداوات مع إخواننا المسلمين... كنا نتبادل الزّيارات في المآتم والأفراح... ما حدث كان رعبا حقيقيّا. كانوا غرباء وملثمين يهجمون على بيوتنا ويسرقون أموالنا وذهبنا" (المؤدب، 2019، صفحة 45). ولم يقف عند هذا الحدّ بل وصف سعي اليهود لتوطيد العلاقة مع التونسيين فيقول: "والمدهش حقا أنّ بعض الأمهات من حيينا كنّ يرسلن أبناءهنّ إلى الكتاتيب لحفظ القرآن وترتيله. كنّا نرى الأمهات أمرهنّ غريبا في بادئ الأمر، لكنّنا فهمنا بعد ذلك أنّهنّ كنّ حريصات على تمتين العلاقات بعائلات المسلمين" (المؤدب، 2019،

الصفحات 43-44). حيث ينبش المؤدب في تاريخ هذا الحمام، وأشهر الحكايات التي رويت عنه، والتي تثير بين طياتها قصص حبّ عديدة بين المسلمين واليهود، والتعايش السلمي بين أتباع الديانتين، والذي لم يعد ممكنا في تونس بعد هزيمة العرب سنة 1967م.

وقد جسّدت الرّواية علاقة حبّ ربطت الأنا بالآخر اليهودي، حين التقى سعد الخلفاوي ذلك الشاب التونسي الذي درس التّاريخ في الجامعة التونسية - والذي كان يحسن النبش عن الآثار التّاريخية- بهيلين ساسون الفتاة اليهودية الشّابة التي جاءت إلى تونس لتدرس التّاريخ بحثا عن تاريخ أجدادها وأسرارهم المخبأة تحت حمام الذهب. فصورة الآخر هنا صورة المرأة اليهودية المحبة التي تتحدى الأعراف والمعتقدات في سبيل حبّها: "أنا لم أفعل بطبيعة الحال ما فعلته الجازية، فالجازية الهلاليّة تركت زوجها من أجل قبيلتها وأنا تركت قبيلتي من أجلك أيّها المجنون...أجل، ما بيننا ليس لعبة قدر فقط، ما بيننا نبشناه بأظفارنا" (المؤدب، 2019، صفحة 10).

هكذا انفتحت هذه العلاقة الإيجابية بين سعد وهيلين وتحوّلت إلى الرابط المقدس دون أن يتخلى أحدهما عن دينه ومعتقده، وحين يقرّ كلّ منهما بضعفه الإنساني وحاجته للآخر يتمكن من تجاوز الكراهية ونظرة الاستعلاء ويتجاوز كلّ ما يلغي إنسانية الإنسان.

فقد نجح هؤلاء اليهود في أن يظلوا جزءا من المدينة التونسية، بل تناولتهم الرّواية خارج منطق العداء ونفي الآخر، وجهدت إلى تقليص مساحة الاتهام والإدانة، واكتفت بالعمل على التعرية غير المباشرة للأنا والآخر على حدّ سواء، جاعلة من العري الفعلي في "حمام الذهب" مدخلا للعوالم السّريّة التّاريخيّة التي عرّتها بكفاءة فنيّة متميزة (صلاح، 2003، صفحة 201).

أدخلنا محمد عيسى المؤدب إلى حمام الذهب، والذي هو ليس كباقي الحمامات التي تلهب الذهن والفضول لمعرفة ما يجري فيها من عري وإثارة، بل يتعدى حتى المخيّلة الغربية حين رسمت لوحات وصورا خاصة بالحمامات العربية وخاصة النسائية، ما أطلق عليه بـ "لوحات الاستشراق في الفن التّشكيلي الأوربي"، ومن بينها لوحة الفنان الفرنسي **جان أوغست آنغر(jean auguste Ingres)** "الحمام التركي"، وهي واحدة من أشهر وأهمّ تلك اللوحات. فدخول حمام الذهب ليس كخروجه ، بل الخروج منه يبدو مستحيلا حين ابتلع الصبيّة قبل 400 سنة، وحين ابتلع اليهودية هيلين، فما إن تجد هيلين القرائن الدّالة على هُويتها وجذورها حتى تبتلعها أرض الحمام.

والرّواية تصوّر الآخر اليهودي الذي ارتبط بتونس وأحبها، والذي لا علاقة له بالصهيونية العالمية ولا بدولة إسرائيل، وذلك ما أجاء على لسان أحد الطلبة في حوار مع منيرة الزّياني الطالبة التونسية حين قابلت هيلين بالرفض اتهمتها بالجوسسة، فكان ردّ هيلين: "ليس بالضّرورة أن يكون اليهود جواسيس وقتلة، لابدّ من التّمييز بين اليهودية وهي ديانة وبين الصهيونية وهي كيان غاصب...في المقابل، ألا تتابعون ما يجري في فلسطين؟ ثمّة كثير من الجواسيس والخونة من العرب، ومن فلسطينّيين أنفسهم" (المؤدب، 2019، صفحة 40). فتردّ عليها بأنّ اتهامها كان متسرعا، وأنّه لابد من مراجعة الكثير من القناعات الجاهزة والخاطئة، ولاسيما نظرتنا للأديان.

ما يؤخذ على هذه الرّواية انحيازها التّام لليهودية هيلين على حساب الطالب الفلسطيني سميح؛ حين تفرط في رسم صورة الآخر بكل مثالية وتصبغ عليه هالة من الطهر والقداسة بانصرافها عن اللهو وانشغالها بالقضايا الجادة، وتتهم الفلسطيني سميح بالطيش واللامبالاة وبأنّه لا يتشرف به أي فلسطيني وخاصة أنه صاحب قضية تقول هيلين: "أعتقد أنّه لم يجرّب الجوع والتّعذيب،

لقد متّعته السلطة الفلسطينية بمنحة استثنائية ليدرس في تونس، وها هو يبدّدها في شرب الويسكي والقمار ومعاكسة الطالبات" (المؤدب، 2019، صفحة 38). هذا الافراط في تدليل الآخر وتصويره منشغلا بالقضية الفلسطينية أكثر من أصحابها فيه نوع من المبالغة.

تتخلى صورة الآخر اليهودي في هاتين الرّوايتين عن نمطيتها المألوفة في الأدب الكلاسيكي، كما وجدناها تفارق صورتها الشّائعة في الرّواية العربية وخاصة الفلسطينيّة، صورة المعتدي الصهيوني الذي احتل الأرض وهتك العرض وسفك الدّماء (حمود، 2013، صفحة 165). فهي تحاول مدّ جسور التّفاهم مع الأنا العربي من خلال لغة التّسامح وتقبل الآخر التي سادت الرّوايتين.

لهذا بدا المغرب العربي مكانا للتعايش المشترك، الذي يستطيع أن ينمي مشاعر إيجابية، تقوم على تقبل الآخر واحترام خصوصيته مادام يقدّر مساحة الاختلاف؛ فحجم الاختلاف ليس أمرا سيئا للغاية إذا كان ينطلق من مبدأ الاعتراف بشرعيته وحق صاحبه في أن يكون مختلفا، كلّ ذلك تحت إطار الحوار الحضاري والتّعايش الإنساني.

3. إدراك الأنا العربية لذاتها في الرّواية المغاربيّة: لا تدرك الأنا ذاتها بطريقة تلقائية ما لم تحتك وتتفاعل وتتصادم مع الآخر، سواءً كان ذاك الآخر حقيقة أم خيالا، سواءً كان في الطرف الآخر أو يعيش بيننا، ويشير غسان طهبوب إلى "أنّ النّظرة إلى "الذّات" تظلّ محكومة بالبحث عن "الضد" ولا تتبلور الهُويّة الوطنيّة من خلال عناصرها الذّاتية، وإنّما من خلال اكتشاف الخصم وتحديده، وتحاول تمييز نفسها عنه" (لبيب، الطاهر، 1999، صفحة 377). فلا وجود لأنا قائمة بذاتها بمعزل عن الآخر، وهو ما أشار إليه علي حرب قائلا: "فالذّات هي منظومة علاقات ولكنها منظومة منفتحة لا منغلقة... فالأنا بهذا المعنى ليست سوى مرآة

لصور مختلفة أو مرايا متعددة تُرى من خلالها ذات واحدة" (حرب، 1995، صفحة 107). وقد عُرف عن الأنا العربية نرجسيتها واعتدادها بنفسها، ولطالما صرحت بذلك في عصورها الأدبية الزاهية حين قال المتنبي معتدا بنفسه:

ودعْ كلّ صوت غير صوتي فإنّني أنا الطائر المحكيّ والآخر الصدى

لقد استطاعت الرواية المغاربية مواجهة أسئلة تثيرها الحياة تدور حول "الأنا"، وما يعترضها من أزمات في تشكيل هويتها حين تصطدم بالآخر، وبذلك تستطيع الرّواية أن تتسلّل إلى وعي الإنسان وتفضح مشاعره، فهي تعتبر خير وسيلة تتيح لنا الاطلاع على تلك المنطقة المظلمة في أعماقنا.

1.3 إدراك الأنا في رواية "أنا وحاييم": يطالعنا عنوان الرّواية بمركب اسمي مكوّن من عطف نسق "أنا وحاييم"، ولم يقل الحبيب السائح "أرسلان وحاييم"، بل قال "أنا وحاييم" ليمثل كلّ أنا جزائرية عاشت كلّ التّحديات خاصة في فترة الاستعمار وأصرت على الاستمرار والمواجهة، ليصرح بتبعية حاييم للأنا منذ العتبة النّصيّة الأولى، فهو كظلّه واقعا وخيالا، وهو ما صرّح به أرسلان باعتباره صاحب سلطة في الخطاب وسرد حكاية اليهود: " لم يكن حاييم مختلفا عنّي في اللباس إلا بالألوان تقريبا. ذلك لأنّه بقدر ما لازمتنا رغبة، لدواعٍ لم يُثرها يوما أحدنا للآخر، في أن تكون ملابسنا متقاربة في النّوع، لما يتطلّبه ذوق فصول السّنة ويفرضه جوّها، تجنبنا من غير أن يخبر أحدنا الآخر، أن نخرج ونسافر بالألوان نفسها" (السايح، 2018، صفحة 38). وها هو حاييم يتحسر على اعتباره نموذجا ناجحا للاندماج فيقول: "فقد تمّ التنويه بي نموذجا حيّا على نجاح الاندماج في مجتمع الجزائر الفرنسية الجديد، وذلك يعني في المسكوت عنه تدجينا. لحظتها ازددت شعورا بالوزر، لتجنس والديّ واعتباري تبعا لذلك فرنسيا" (السايح، 2018، صفحة 206)، فهو يفضل تبعيته للعرب على تبعيته لفرنسا ويتحسر على ذلك. وكأنّ الأنا تمارس سلطتها دون وعي، وتمارس أناها بصورة غير مباشرة ولا أدلّ على

ذلك استحواذ أرسلان سلطة السرد منذ لحظة الكتابة الأولى، بل منذ كتابة العنوان.

وقد أشارت إليه آمنة بلعلى في سياق دراستها للرّواية أنه "كان حريّا أن يتصدر النموذج المثال بداية العنوان، فيقول "حاييم وأنا" وأن يكون التّقديم دالا عن المكانة التي أرادها له، ويتكفل السّارد بتحيينها. تأكيدا منه على أنّ اليهود لم يكونوا سوى أقلية تابعة (أهل الذّمة) كرست في التّاريخ والحضارة الإسلامية" (بلعلى، 2019، صفحة 117). فالكاتب يصوّر الأنا الجزائرية ذات الحال الميسور حتى في ظل الفقر والحرمان الذي تعانيه الأسر الجزائرية إبان الاستعمار الفرنسي نظرا لمكانة الأب من هذا المستعمر. واليهودي هو من كان يعيش في ظله ويتقاسم معه الخبز والملح.

إنّ تجاوز صورة الآخر العدو يحتاج إلى علاقات إنسانية تستطيع أن تحرر الأنا من ضغط التّفكير السائد الذي تشكّل على مرّ السنين، وترسّخ في الذّاكرة الجمعية للعربي بما تختزله من أوجاع التاريخ الممتدة من النكبة إلى التّشرد والشّتات، والهزائم وصولا إلى الاتهام بالإرهاب وغيرها من الاتهامات، وما علق من صور مرعبة في ذاكرة الأنا العربية.

وما يلفت هنا في لغة الآخر هو شيوع لغة المجاملة للأنا وكأننا نعايش هنا اعتراف الأقلية اليهودية بتبعيتها للأنا العربية، وذلك ما لمسناه في نبرة حاييم وهو يعتدّ بصديقه ويمدحه حين أدهش زملاءَه في قسم الفلسفة بإتقانه للغة الفرنسية وإجادتها، وما توصية حاييم بجزء من أملاكه لأرسلان إلا بمثابة الجزية التي يقدّمها اليهودي اعترافا بأفضاله عليه. وهو ما أشارت إليه بلعلى بأنّ من يملك اللغة والكلام يمتلك التأويل ومن يمتلك التّأويل يمتلك السلطة أيضا. فالأنا السّاردة حصرت دور الآخر بين البيت والقبر ولم تمكنّه من امتلاك وطن.

2.3 تشكيل الأنا في رواية "حمام الذّهب": قامت عملية التعرية الفعلية في حمام الذّهب بوظيفة الاستعارة البلاغية لعملية التّعريّة السّياسيّة والاجتماعية والتّاريخية، وتمكّنت من الكشف عن معاناة الأنا التونسية في البحث عن هويتها، فما إن تجد هيلين اليهودية القرائن الدّالة على هويتها وجذورها حتى يبتلعها الحمام، وهذا الإسقاط إشارة لواقع الأنا التونسية وما يطغى عليه من العنف والحقد وإلغاء الآخر حسب تصريح الكاتب لمجلة العرب (العدد 11902) (متروك، 2020).

إنّ الملاحظ في هذه الرّواية أنّ الكاتب لم يعلِ من شأن الآخر؛ فهيلين هي من كانت في حاجة سعد الخلفاوي سواء من النّاحية العاطفية أو من ناحية المصلحة نظرا لقدرته على النبش والبحث على الآثار، تلك الحرفة التي تعلمها من والده إبراهيم، فالبحث عن تاريخ اليهود الذي تجسده الرواية ما هو إلا اسقاط لتاريخ الشعوب العربية المسكوت عنه الذي لم يكتب بدقة أو الذي طاله التّحريف: "تاريخ تونس، على سبيل الذكر، لم يكتب بشكل دقيق، وسكت عن الكثير من الوقائع الصّادمة، المحرقة النازية ضد اليهود مثلا" (المؤدب، 2019، صفحة 155)، ويؤكد الكاتب على لسان هيلين أنّ المؤرخين ضخّموا وقائع تافهة، نفخوا فيها واحتفلوا بأبطال وهميين.

ورغم تلك العلاقة الحميمة التي جمعتهما، إلا أنّ الأنا العربية تتمسك بمبادئها وثوابتها التي تؤمن بها، حتى حين حاولت هيلين إقناع سعد بالدخول إلى الكنيس اليهودي الذي لا تتردد عن زيارته كلّ سبت وفشلت في ذلك. وقد صرح قائلا: "لم يسبق لي أن دخلت الكنيس اليهوديّ، حاولت هيلين ذلك مرارا وكنت أعتذر دوما بابتسامة لطيفة" (المؤدب، 2019، صفحة 12). ولا يتأتى ذلك إلا حينما ينشأ الوعي في الذّات، وتعي الذات ذاتها، وبالتّالي يكون التّواصل مع الآخر إغناء للهوية مما يجعلها تتصدى لكلّ من يريد مسخها وتهميشها. وظلّ حمام

الذهب من المناطق المحتفظة بعتمتها المغربة وسرّيتها الملغزة مهما حاولت عمليات البحث والنبش تعريتها وإنارتها إلا أنها فشلت في افتضاض مكنوناتها.

سعت الخاتمة في الروايتين إلى تغيّيب الآخر بموت حاييم بالسرطان، وموت هيلين تحت الأنقاض، فمن جهة هي تقرّ بعدم امتلاكهما للوطن الذي سعيا للحصول عليه. ومن جهة أخرى ما هو إلا إقرار بالدور الذي أنيط بهما، وكأنّهما جاءا فقط من أجل تحسين صورة اليهودي، وبذلك يضع الكاتبان مفهوم التّعايش مع اليهود، والتّاريخ الذي صنعه اليهود بين احتمالين: "إما أنّها مجرد أوهام وتخيّلات يُمتنع تحقيقها، وإما حياة لا يمكن احتمالها والتمتع بها" (بلعلى، 2019، صفحة 117).

كما سعى الروائيان لتسليط الضوء على الأقلية اليهودية في المغرب العربي التي رفضت الهجرة إلى فرنسا وفلسطين بهدف الاستيطان، وما لاقته من معاناة واضطهاد خاصة بعد النكبة والنكسة، فالمؤدب ينتقد على لسان أحد أبطال الرّواية التّجاهل غير المبرر للتأريخ لحضور الأقلية اليهودية في مراحل مهمة من تاريخ تونس، وذِكرهم في بعض المراجع القليلة بإيجاز شديد، حتى صاروا جزءا من عالم أسطوري خيالي يتداول الناس حكايته شفويا. كما هو الحال بالنسبة للأقلية اليهودية بالجزائر التي فضلت البقاء في الجزائر بعد استقلالها، والتي كانت متعاطفة مع الثورة الجزائرية كما فعلت عائلة حاييم بنميمون، فهي تعيش في الجزائر وتتمتع بكامل حقوقها وحرياتها وتشكّل جزءا لا يتجزأ من مكونات البلد البشرية والتّاريخيّة والثّقافيّة وهذا ما صرّح به الحبيب السائح.

4. خاتمة

خلاصة القول ومن خلال هذه الدّراسة حاولنا تناول هذه الإشكالية التي تعتبر أحد وجوه الأزمة الذّاتيّة العربية، فرغم أنّ الرّواية العربية المعاصرة كسرت الطابوهات بتناول الشّخصية اليهودية في المتن الروائي، وتجاوزت النّظرة المعادية له من خلال إظهار بعض صورها الايجابية، رغبة منها في نشر القيّم الجديدة التي تدعو إلى التّعايش والتّسامح وقبول الآخر وهو ما جسدته روايتيّ "أنا وحاييم" و"حمام الذّهب"، إلا أن هذه النّظرة ستبقى قيد المنجز الإبداعي الأدبي ولا يمكن إسقاطها أو تجسيدها على أرض الواقع، خاصة وأنّ الذّات العربية لا زالت تتنزى بجراحات الذّاكرة وتتكئ على حاضر يعاني التّشظي وعدم الاستقرار.

قائمة المراجع:

1- الحبيب السايح. (2018). أنا وحاييم (ط 01). الجزائر: دار ميم للنشر.

2- أمنة بلعلى. (2019). زحام الأنساق في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السايح. (العدد 52)، صفحات (114-121).

3- حنان مبروك. (05، 12، 2020). حمام الذهب أسطورة تونسية من منظور روائي، مجلة العرب،(11902).

4- صالح صلاح. (2003). سرد الآخر (ط 01). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

5- علي حرب. (1995). الممنوع والممتنع (ط 01) ، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

6- لبيب، الطاهر. (1999). صورة الآخر (ط 01). (لبيب الطاهر، المحرر) بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية.

7- ماجدة حمود. (2013). إشكالية الأنا والآخر ، الكويت، العدد 398، عالم المعرفة.

8- محمد سيد أحمد متولي. (2019). صورة اليهودي في الرواية العربية المعاصرة. القاهرة: مركز الدراسات الشرقية.

9- محمد عيسى المؤدب. (2019). حمام الذهب ، تونس: دار مسكيلياني ومسعى للنشر والتوزيع.